الرحلة بمنطقة توات اتجاهاتها و أغراضها

The trip to the Touat region, its directions and purposes

د. عبدالله كرّوم
جامعة أحمد درايعية
أدرار ، الجزائر
Email: kerroum1974@gmail.com

Abstract
The Touat region (the state of Adrar in the southwest of Algeria) is of great importance, as it is an ancient scientific metropolis, and a transit route for commercial convoys between the north and south of the African continent. This region was also distinguished by its Qur'anic schools and Sufi angles, and its economic, cultural and symbolic presence, which made it a pilgrimage site for travelers, scholars, merchants and discoverers. It was visited by many of the famous travellers, such as Ibn Battuta, Al-Hasan Al-Wazzan, and Al-Ayashi, and they talked about it on their famous trips.
In view of the strategic location of the Touat region, it interacted with the migrations of scholars and poets who migrated to it, and influenced and affected them. The Touat not only received delegations, but also engaged in discovery and research through the journey, and their trips varied in direction and purpose. Some of them traveled within the Algerian country, and some traveled towards Abroad, especially neighboring countries, and some of them headed towards the Holy Land to perform the rituals of Hajj, What is travel literature? How did it arise and develop? What are the most prominent twin trips? What directions did they take? And what are their purposes?
Keywords: travel literature, Touat, Arabic literature, Algerian literature, directions, purposes

الملخص:
تكتسي منطقة توات (ولاية أدرار الجنوب الغربي من الجزائر) أهمية كبيرة، بوصفها حاضرة علمية عريقة، وطريق عبور للقوافل التجارية ما بين شمال القارة الإفريقية وجنوبها، كما تميزت تلك المنطقة بمدارسها القرآنية وزواياها الصوفية، وبحضورها الاقتصادي والثقافي والرمزي ما جعلها محجا للرحالين والعلماء والتجار والمكتشفين، وقد زارها العديد من أعلام الرحلة كابن بطوطة، والحسن الوزان، والعياشي، وتحدثوا عنها في رحلاتهم المشهورة.

ونظرا للموقع الاستراتيجي لمنطقة توات فقد تفاعلت مع هجرات من هجر إليها من العلماء والشعراء، وأثروا فيها وتأثروا بها، ولم يكتف التواتيون باستقبال الوفود، إنما انخرطوا في الاكتشاف والبحث من خلال الرحلة، وتنوعت رحلاتهم اتجاها وغرضا، فبعضهم سافر داخل القطر الجزائري، وبعضهم ارتحل نحو الخارج، ولاسيما دول الجوار، وبعضهم اتجه نحو الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج، فكانت رحلاتهم حجازية. فما هو أدب الرحلة؟ وكيف نشأ وتطور؟ وما هي أبرز رحلات التواتيين؟ وما هي الاتجاهات التي سلكوها؟ وما هي أغراضهم؟

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، توات، الأدب العربي، الأدب الجزائري، الاتجاهات، الأغراض.

1 – مفهوم الرحلة لغة :

جاء في معجم الوسيط، في مادة (رحل) ما يلي: رحل عن المكان ر حلاً، ورحيلاً، وترحالاً، الرّحال: العرب الرُحَل: الذين لا يستقرون في مكان، ويَحلّون بماشيتهم، حيث يسقط الغيث، و ينبت المرعى. الرّحّالَةُ: الكثير الرّحْلَة (الرَّحْلُ): العرب الرُّحَّلُ – الرُّحَّالُ.

الرَّحلَةُ: الارتِحَالُ، ج (رحل) في التنزيل نقرأ قوله تعالى: ((رحلة الشّتاء والصّيف))[1]

الرّحلة : كتاب يصف فيه الرّحالة ما رأى في (الرّحلة) : ما يُرتَحَلُ إليه، يقال الكعبة رُحلة المسلمين، وأنتم رحلي، (الرّحول): كثير الارتحال.[2]

2 – مفهوم أدب الرحلة اصطلاحاً: يسمى (أدب الرّحلات) أيضا، وهو من الفنون الأدبية التي عرفت ازدهاراً في أدبنا العربي منذ القرون الأولى.[3]

حيث عرف العرب التقويم والبلدان من المراحل الأولى للتأليف، وخطوا مؤلفاتهم في رحلات عامة، ووصفوا فيها ما يرون ومن يرون، وجعلوا كتبهم تأخذ طابعاً فنياً، وأدبياً، وتاريخياً، وجغرافياً، حتى أصبحت أشبه بالموسوعة الثقافية، ويهتمون في كتابة رحلاهم بأسلوب التشويق، فجاءت رحلاتهم ناقصة من جانب علمية الموضوع، كما أن هناك أعلاماً قاموا برحلاتهم، و سجلوا مشاهدهم بدقة، لكنّ كتبهم لم تسلم من الضّياع، و بعضهم دوّنوا مذكراتِهم في رحلاتهم من غير أن تكون الرحلة سبباً في صناعة الكتاب، ربما كان السبب اجتماعياً، أو لطلب العلم، أو لاضطهاد مذهبي.[4]

وساعدت وسائل المواصلات والاتصالات المتطورة على توسيع قاعدته، ومشمولاته، حتى أصبح هذا اللون أدباً وعلماً في آن واحد، تعددت فضائل المهتمين به، والمستثمرين له، وكاد أن يختلط بـ (اليوميات)، و(المذكرات)، و(الذّكريات)، و(السيرة الذاتية).[5]

2– أنواع الرحلة : الرحلة نوعان : شعرية، ونثرية.

أ – الشعرية : وعرف الشعر العربي ذلك، ومن الأمثلة أمرؤ القيس، الذي أبدع في شعره، فلفت الأنظار إليه فيقول : عوجاً على الطلل المحيا لعلنَّا * نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وقد اقتفى كثير من الشعراء الوقوف على الأطلال، حتى في صدر الإسلام، فضمنوها أشياء متعددة، نبع ذلك مما يشعرون به من انفعالات في هذه الوقفة، فقد حددوا مواضع هذه الأطلال، وصوروا ما أصابها من قدم، وما حل بها من حيوانات، و استعادوا ذكرياتهم، ووصفوا أحياءهم، قال ابن قتيبة:

(ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي على مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة، والبعير... أو يقطع إلى الممدوح

منابت النرجس، والأس، والورد؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح، والحنوة، والقرارة).[6]

ولا ترتبط الرحلة بالمقدمة الغزلية أو الطلالية، بل يتعلق بالغرض المدحي كما بينا في مقولة ابن قتيبة، وذلك حين قال: (أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس، والأس، والورد)، فالشاعر يصف المصاعب، والأهوال التي واجهتهم في رحلتهم التي اضطروا إلى القيام بها، ليصلوا إلى من يمدحونهم، وذلك من أجل الحصول على عطاء الممدوح، ومع ظهور الرومانسية في العصر الحديث، افتقد هذا النوع من الرحلات.[7]

ب – النثرية : الرحلات النثرية هي التي يعنيها المصطلح (أدب الرحلة) لا الشعرية، ذلك لأن النثرية هي التي يسجل فيها أصحابها انطباعاتهم عما شاهدوه، وسمعوه في مختلف المدن، والأقطار التي مروا بها،[8] وهي تتفاوت بين الطول، والقصر، فقد شغلت رحلة أحمد بن حسن المتيوي من فاس الى تافيلالت ورقتين فقط. وعلى خلاف ذلك قال خليل بن تنتهين الظاهري : (إنني صنفت كتاباً، و سميته، كشف المسالك و بيان الطرق والمسالك، ويشتمل على مجلدين ضخمين، يشتملان على أربعين باباً...، معتمداً في ذلك على ما شاهده العيان، أو تحققته من نقل الثقاة الأعيان، الذين يركن إليهم غاية الأركان، أطلعت عليه من كتب المتقدمين، وما وجدته منقولاً عن المشايخ المعتبرين).[9]

3 – أقسامها :

للرحلات أقسام عديدة تكون حسب الأسباب والأغراض ومنها:

1 – الرحلة الدينية:

وهنا تدخل فريضة الحج إلى الكعبة في مكة المكرمة، وما تتركه في النفس من أشواق، ومشاعر تحرك قرائح الشعراء، والأدباء، وتدفعهم لتسجيل ملاحظاتهم، وما يرونه في البقاع المقدسة، وخلال السفر إليها، ويصوغون ذلك في قوالب فنية، تخلد رحلتهم وذكرياتهم، وكذلك شد الرحال إلى فلسطين عامة، والقدس خاصة، فقد كانت قبلة لرحلات كثيرة ازدادت زيادة واضحة منذ عصر الحروب الصليبية، فهي مهد لجميع الديانات، كما كان لزيارة الأولياء، وأضرحتهم السبب الكبير الذي دفع الصوفيين إلى الرحلة، فكتبوا عن

المشاهد، والمزارات، والكرامات، وأتعاب السفر في ذلك، ومن أمثله الذين قاموا بالرحلة في المجال الديني ابن جبير الذي قام بثلاث رحلات للحج، وقام بالثانية لما سمع بالخير السار على كل مسلم، ألا وهو استرجاع صلاح الدين الأيوبي للقدس سنة 583 هـ – 1187 م.[10]

2 – الرحلة الاقتصادية : وتظهر في هذا المجال التجارة خصوصاً، فبلاد العرب عرفت تبادلاً تجارياً مع الهند، والصين، إذ رحل العرب إليها، وجاء إلى بلادهم كثير من الرحالة، ولما انتشر الإسلام، وبسطت الخلافة الإسلامية سلطانها على العالم اتسع نطاق التجارة ليشمل أفريقيا، وجنوب أوربا، وكانت أماكن خصبة لكثير من الرحلات.[11]

و من الذين اشتهروا هذا النوع ابن بطوطة،[12] الذي قام بأول رحلة قاصداً الحج لزيارة بيت الله الحرام، وعمره لم يتجاوز الحادية والعشرين، ودامت هاته الرحلة ثمانية وعشرين (28) عاماً، ثم تابع رحلته إلى عدة بلدان في رحلته الثانية، والثالثة، وكانت بأمر من السلطان.

والرحلة الاقتصادية هدفها اليوم معرفة المواقع الاستراتيجية لتسهيل حركة نقل البضائع، ومعرفة المرافق، والهياكل القاعدية في البلدان، لتسهيل الاستثمار، والسيولة المالية.

3 – الرحلة العلمية:

طلب العلم من أقدم الأغراض والأسباب التي دفعت الناس للقيام برحلات، وكان الإسلام دائما مشجعاً لشد الرحال في طلب العلم، حيث رحل اللغويون، والنحويون، ورواة الشعر للبوادي لجميع اللغة من أهلها، وفي محلها الصافي الذي لم يكدر بلكنة، أو لحن، ورحل المحدثون إلى الصحابة والتابعين لحفظ الحديث من التشويه، وحمايته من الدخيل، والموضوع، فقد استجمع أهل الحديث أمرهم، وانطلقوا في الأرض باحثين عن صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، في الوهاد، والنجاد، وكذلك كان طلاب العلم من الرحالين، بل إن كثيراً من الرحلات ارتبطت بالإجازات العلمية، وذكر سلسلة المشايخ الذين درس عليهم الرحالة، كما فعل سيدي عبد الرحمن بن عمر التنيلاني في رحلاته، حيث لم يفصلها عن فهرسة الأعلام الذين أخذ عنهم العلم.

وكذلك الرحلات الاستكشافية، فإنها تدخل ضمن الرحلات العلمية، والغرض منها البحث عن المجهول، ومن هاته الرحلات رحلات أحمد حسين في الصحراء الكبرى، التي اكتشف فيها واحتي اركنو، و العوينات، على الحدود بين مصر، وليبيا، والسودان، حيث وصفها في كتابه (في صحراء ليبيا).[13]

4 – الرحلة الإدارية:

وهي التي تُكلّف بها إحدى الإدارات، أو الحاكم نفسه أحد الرجال، أو مجموعة معينة لتحقيق هدف ما، ولما توسعت الدولة الإسلامية، وترامت أطرافها تحتم عليها اتخاذ عيون، وسفراء ينقلون لها الأخبار،

والمعلومات الخاصة بما يضمن استقرار الدولة، ويذهب بعض الدارسين إلى أن التجسس كان سبباً في قيام بعض الرحلات القديمة، أما في العصر الحديث فالأمر لا يحتاج إلى برهان بأن التجسس هو السبب الخفي لكثير من الرحلات، ويدخل ضمن هذا روايات الأسرى المسلمين في البلاد الأجنبية بعد عودتهم التي يصفون فيها معاناتهم، وأساليب الأعداء في التعذيب والمعاملة القاسية، ويدخل ضمن هذا الباب ما يسمى اليوم بحق اللجوء السياسي، أو الهروب بسبب الاضطرابات السياسية، والخوف من القتل، والفتن الداخلية، ويتضح هذا في الدوافع التي جعلت ابن خلدون يغادر تونس، ويستقر في مصر، كما أنه يندرج تحت هذا الباب أعمال القائمين بالسفارة، والتمثيليات الدبلوماسية، ومثال ذلك كتاب السياسي الجزائري محي الدين عميمور (سفيراً زاده الخيال)، وكتابات نزار قباني السياسية والديبلوماسية.

5 – الرحلة الشخصية :

من الطبيعي أن يقوم أشخاص عديدون بالسفر، حباً في السفر ودفعاً للخمول والركود، يتحلى هؤلاء بروح المغامرة، والمجازفة، فيقومون بالسفر بمحض إرداتهم، وقد كان هذا الأمر قليلا في القديم، لكنه يكاد يكون السائد في عصرنا، و خاصة لما انتشرت وسائل المواصلات، وأصبحت ميسورة، ومأمونة، وازداد الشوق، والحب للسفر، والتجوال، يقول أحمد فارس الشدياق : (كنت في عنفوان شبابي، وحدة بأسي، وإزهار آسي، وازدهار ذهبي، ولعاً بالسفر والاغتراب، والترحل عن الوطن والأصحاب إلى بلد ينضر فيه غرسي، وتطيب فيه نفسي، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا).[14]

6 – الرحلة الخيالية:

يرى الدكتور شوقي ضيف، أن الإنسان ولد رحالاً، فإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، فالرحلة الخيالية تتميز بالاتساع، فهي لا تقتصر على الماضي البعيد، أو القريب، بل تتعداه إلى الحاضر، والمستقبل المستشرف، ومن هذه الرحلات رحلة (الكوميديا الإلهية)[15] للإيطالي دانتي.[16] ويدخل ضمن هذا الباب الرحالات الشوقية إلى الحج، كالتي قام بها الشاعران الشعبيان ولد سيد الحاج القبلاوي، وعثماني علي، وكلاهما من إقليم توات.

6 – نشأة الرحلة وتطورها في الأدب العربي : عرف العرب الرحلة منذ العصر الجاهلي؛ لأنهم أهل بداوة يتتبعون منابت الكلأ وموارد الماء، ولأنهم كانوا تجاراً يضربون في الأرض بحثاً عن المال و الكسب، وقد ذكر القرآن الكريم رحلتي قريش، قال تعالى: ((رحلة الشتاء والصيف"))[17] إلا أن رحلات العرب في شبه الجزيرة العربية، وخارجها لم تدوّن، إلا ما جاء نذراً في بعض الأشعار، وتلميحاً لا تصريحاً، وبعد الفتح الإسلامي انطلق العرب في الفتوحات خارج الجزيرة العربية، فتعرفوا على أوطان أخرى، وشعوب لها عاداتها وتقاليدها، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وامتدت طولا وعرضاً، وأصبح الخليفة بحاجة إلى معلومات عن المسالك

والممالك، فأصبحت الرحلة فناً أدبيا لصيقاً بالتاريخ والجغرافيا.

ومن هنا يبرز التنوع في الرحلات لا بمستواها الأدبي فحسب، بل بمنحناها التاريخي، أو الجغرافي، أو الاثنوجرافي[18] ، مما جعلها تصاغ في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي والمتعة الأدبية.

لقد انطلق أدب الرحلة في القرن الثالث الهجري على يد أبي العباس أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي صاحب (كتاب البلدان)، وكذلك البلاذري في كتابه (فتوح البلدان)، وفيه مسحة تاريخية غالبة على الجغرافيا، وفي القرن الرابع الهجري يتحفنا المسعودي بكتابه (مروج الذهب) متحدثاً كما قال عن (هيئة الأرض ومدها...، وأخبار غيظها، وأصل النسل، وتباين الأوطان)[19]. وقد اهتم المسعودي بفن الرحلة، وحض عليه، وأولى اهتماماً كبيراً للقالب الفني البديع، ثم يأتي البيروني كحلقة وصل بين القرنين الرابع والخامس من الهجرة، وفي هذه الحقبة تطورت الرحلة، وأصبحت تميل للاستقلال عن الجغرافيا والتاريخ، وبرزت كفن أدبي، تم تحول هذا النوع من الأدب إلى المغرب الإسلامي، وتقدم فيه للريادة خلال القرن السادس الهجري (الإدريسي) من خلال كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ليأتي بعده (ابن جبير)، وهي أول رحلة في الأدب العربي، ظهرت فيها الرحلة كفن شبه مستقل عن التاريخ والجغرافيا، وقد خطت الرحلة بعده خطوات متقدمة، خصوصاً بعد ظهور الرحالة الأكثر شهرة في أدب الرحلات؛ أعني ابن بطوطة ورحلاته، التي عبر بها الأوطان والقارات [20]، وعرفت انتشاراً واسعاً لما لهذه الرحلة من قيمة أدبية، ومغامرات، وحدود واسعة لمشمولها، وذيوع واحتفاء عالمي بها.

وبعد ابن بطوطة جاء (الحسن بن محمد الوزان)[21] المعروف باسم (ليون الإفريقي)، الذي سمى رحلته (وصف إفريقيا)، وكان لحياته التي عرفت اضطراباً أهمية كبيرة في شهرة رحلته، وهو خاتمة الرحالين الذين ربطوا الرحلة بالجغرافيا، ليعرف أدب الرحلة ركوداً في القرن العاشر، ويعرف معاودة بعد عصر النهضة، وظهور الطباعة، وحركة الترجمة من خلال البعثات العلمية إلى أوربا، التي قام بها (رفاعة الطهطاوي)، والذي كتب عن رحلته إلى أوربا، وكذلك فعل أحمد فارس الشدياق، ومعظم رواد النهضة الحديثة في العالم العربي، من أمثال محمد السنوسي : (1851 – 1900م)، الذي قام برحلات إلى إيطاليا، والآستانة، وأسيا الصغرى، والحجاز.[22]

وبظهور الصحافة نشر العديد من العلماء والأدباء رحلاتهم، مثل رحلة الشيخ عبد الحميد بن باديس داخل القطر الجزائري و خارجه [23]، ورحلات البشير الإبراهيمي[24] خارج الوطن.

7 – أدب الرحلة في الأدب الجزائري : لقد أسهم الجزائريون في أدب الرحلات إسهاما واضحا، ولاسيما في القرن الثاني عشر (18 م)، وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك كانت رحلات حجازية، وبعضها نتيجة لطلب العلم، وبذلك تكون رحلات علمية.[25]

ولعل من أقدم الرحلات التي تنسب إلى ما قبل العهد العثماني؛ هي رحلة (التجيني التلمساني)، التي قال عنها عبد الحي الكتاني، إنها في عدة مؤلفات، كما أن أحمد المقري، قد ساق في (أزهار الرياض)، رحلة لجده محمد المقري التلمساني، المعروف بأنه أستاذ ابن خلدون، وتنسب إلى أحمد القسنطيني، المعروف بابن قنفذ رحلة تعتبر في حكم الضائعة، ولعلّها حسب البعض موجودة بتونس [26]، أما الرحلات في العهد العثماني فتقسم إلى قسمين، رحلات علمية وأخرى حجازية.

أ – الرحلات العلمية:

من أقدمها رحلة عاشور بن موسى القسنطيني، المعروف بالفكيرين المتوفي سنة 1074 م، تحدث فيها عن طلبه للعلم في عدة بلدان، وتحدث عن (غريب البلاد وأهلها...، وذكر غرائب المسموعات من زى أهلها لباساً، وقوتاً)، ولكنها غير مكتوبة، أو منشورة بعينها.[27]

ومن الرحلات المكتوبة وغير الحجازية، رحلة (عبد الرزاق بن حمادوش)، الذي عاش في القرن الثاني عشر، فهي رحلة قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة، من مدينة الجزائر إلى تطوان، فمكناس، ثم فاس، وبعدها عاد إلى الجزائر من تطوان، وقد وصف الحياة السياسية، والاقتصادية في المغرب، وسجل ملاحظاته، وإجازات العلماء له، وأحكامه في رحلته التي تعرف أيضا باسم (لسان المقال).[28]

ولعل آخر هذه الرحلات رحلة (ابن الدين الأغواطي)، والتي كتبها في أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر استجابة لطلب مساعد القنصل الأمريكي بالجزائر (وليام هودسون)، وقد تحدث الأغواطي في رحلته عن الصحراء، وقراها، و واحاتها، و عاداتها، وتقاليدها، و ذكر توات، وأولف، وتحدث أيضا عن جزء من الجزيرة العربية، وجربة، وقابس، وشنقيط، ونحوها.

ب– الرحلة الحجازية:

أما الرحلات الحجازية، فهي كثيرة جداً نثراً، وشعراً، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، قصيدة محمد بن منصور العامري التلمساني، التي فرغ منها سنة 1152هـ، وهي قصيدة همزية مطلعها :

أزمع السير إن دهت أدواء الشفيع* الأنام فهو الدّواء

كما نظم عبد الرحمن بن محمد بن الحروب المحاجي رحلته من بحاجة إلى مكة المكرمة، سنة 1063هـ، وهي قصيدة طويلة مطلعها:

نشق الفيافي فدفداً بعد قدفد * جبالاً وأوعاراً وأرضاً وطية

أما في النثر فتوجد رحلات كثيرة نذكر منها : رحلة البوني، المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية)، ولكنها في عداد الضائع، ولابن عمار رحلة أخرى تسمى (تحلة اللبيب في أخبار الرحلة عن الحبيب) [29]، ومن أشهر الرحلات الحجازية رحلة الورثيلاني ،[30] وقد تضمنت رحلته نبذة عن حياته، وتحليلا لما رآه في

الجزيرة العربية، متحدثاً عن مصادره في ذلك، ورحلته تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري (18 م)، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال.[31]

أما في العهد الاستعماري فقد وظف المستعمر الغاشم الرحلة لتحسين صورته، وتحقيق أغراضه الاستعمارية، وتمت رحلتان اتجه صاحباها من الجزائر إلى باريس برعاية الحكام العسكريين في الجزائر وفرنسا.

الرحلة الأولى : (رحلة سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسة)، أو الرحلة الصيامية، وكانت سنة 1852م.

أما الرحلة الثانية فصاحبها (أحمد بن قاد)، سماها (الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية)، وقد برعت الرحالتان في تمجيد المستعمر، ووصفا فرنسا وصفاً يصل لحد الافتتان، يقول أحمد بن قاد مبهوراً : (إننا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان لشهر غشت سنة 1873 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع فيها ما افترق في غيرها من الحسن والإحسان، وضمت ما تشتاق إليه النفس، وترغب في سماعه الاذان).[32]

أما في القرن العشرين فقد تمت الرحلة، وتطورت، وانفتحت على الخارج أيضا بوجه سياسي نضالي، وقد فرض على الرحالة الدخول في معركة ذات جبهات مختلفة، أولها مع المستعمر، وثانيها مع مظاهر التخلف، والأمية، والفقر، والجهل، فلم تعد الرحلة أدب نزهات خالصة، ولا معلومات تاريخية بحتة، بل غدت ضرباً من النضال السياسي والاجتماعي والثقافي لتغيير الواقع، وللتعريف بحق الوطن، والمواطن في الأمن، والحرية، والاستقلال، ونذكر هنا رحلات الشيخ عبد الحميد بن باديس داخل الوطن، والتي دوّنها في مجلة الشهاب، ورحلات البشير الإبراهيمي إلى الأقطار الإسلامية، ورحلات المفكر مالك بن نبي لإيقاظ الأمة الإسلامية, وحل مشكلة الحضارة, ورحلات العديد من العلماء والأدباء الجزائريين المحدثين33.

ولكن رغم كل هذا الرقم من الرّحلات, في الأدب الجزائري لم يذكر أحد من المؤرخين أو الباحثين شيئاً قليلاً أو كثيراً, عن أدب الرحلات بإقليم توات, ويبدو أنه أهمل كما أهمل تاريخ هذا الإقليم, فهل عرف إقليم توات أدب الرحلات ؟

8–منطقة توات بين زخم التاريخ وسحر الجغرافيا

إقليم توات هو ثلاث مناطق كبرى من ولايتي أدرار وتيميمون، وتتضمن ما يلي:

1 – منطقة توات الحنة (الوسطى) : (من تسابيت إلى رقان).

2 – منطقة تيديكلت : (منطقة أولف).

3– منطقة قورارة: (منطقة تيميمون).

يقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية، وتبعد أقرب نقطة منه عن العاصمة الجزائرية بحولي 1500 كلم، يحده من الشمال العرق الغربي الكبير، وواد مقيدن، ويحده من الجنوب صحراء تانزروفت،

وواد فاريت، و جبال مويرا، كما يحده من الشرق العرق الشرقي الكبير المحازي لواد الماية، ويحده من الغرب واد الساورة.[34]

وهذا الإقليم يشتمل على عدد من الواحات، والمدن، والقصور تزيد عن الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة هنا وهناك، وهي تغطي حوالي 2000 ألفين ميل مربع من الأرض، ويقع الإقليم بين خطي عرض 26 / 30 درجة شمالاً وبين خطي طول 4 غرباً الى 1 شرقاً.[35]

1 – تضاريس الإقليم : يتكون إقليم توات من ناحية تضاريسه من الحمادة، والرق، والعرق، والسبخة، وبعض السلاسل الجبلية المنخفضة، مثل هضبة تادميت.

– هيدروغرافية الإقليم:[36] يقع الإقليم التواتي في مجال صحراوي تجري مياهه السطحية، والباطنية، منذ ما قبل التاريخ من الأطلس حتى النيجر، بل حتى الحوض البحري لتاودني(جهة مالي).[37]

– الأودية: في الإقليم ثلاثة أودية تصبّ مياهها الجوفية في الفقارات (طريقة السقي التقليدية) والآبار، وتتمثل في وادي مقيدن، الذي ينتهي بمنطقة قورارة، ثم وادي مسعود، الّذي ينتهي بمنطقة توات الحنة، والثالث وادي فاريت، والذي ينتهي بمنطقة تيديكلت[38].

– المناخ : يتميز مناخ إقليم المنطقة كله بمناخ صحراوي قاري جاف، شديد البرودة شتاء، وشديد الحرارة صيفاً، و هي ميزة تختص بها كل الصحراء الكبرى؛ لأنها منطقة سفلى مليئة بالكثبان الرملية التي تمتص كمية كبيرة من الحرارة في ساعات قلائل، والدرجة القصوى تبلغ 50 درجة في شهر جويلية، والمتوسطة تبلغ 40 درجة لكنها تنخفض في فصل الشتاء.[39]

– الرياح : تعصف بالإقليم رياح جنوبية تدعى الشهيلي.[40]

أما الرياح التي تنجر عنها زوابع رملية، فهي رياح جنوبية شرقية، ويسميها الفرنسيون Sirocco.[41]

الأمطار : لا يكون هطول الأمطار عاديا، إنما يسبقه دوي الرعد، وومضات البرق، وهي نادرة جداً، وغير منتظمة، وتنزل الأمطار متقطعة لتسبب فيضانات، وبالتالي انجراف الأودية الصحراوية، مما قد ينجم عنها فيضان أنهار صغيرة تفيض في محطات معدودة وتغرق مناطق بأسرها، ومياه الأمطار قليلة، ولا يكاد المعدل المتساقط يتجاوز 200 ملم في السنة، (فمنطقة أدرار في ظرف 10 سنوات سُجلت بها كمية 250 ملم) [42]فقط.

2– الطرق التجارية : كانت توات مركز عبور لكثير من القوافل التجارية، تأتيها من جهات عديدة، من سجلماسة (الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى) غرباً إلى غدامس(ليبيا) شرقاً، و من تلمسان شمالاً إلى السودان الغربي، ومالي، والنيجر جنوباً، وهذه الطرق هي ذاتها التي سلكها العلماء المصلحون من أمثال الشيخ المغيلي، والشيخ سيد المختار الكنتي، وسلكها الرحالون الجوّابون من أمثال ابن بطوطة، وسيدي

عبد الرحمن بن عمر التينلاني، وغيرهما، وكانت الطرق الصحراوية التي تتفرع من توات تتجمع في اتجاهين، شمالي وجنوبي ، و كان الاتجاه الأول يربط بين توات، وأسواق شمال المغرب العربي، ويتشكل من ثلاث طرق رئيسية، أولها شمالي شرقي تسلكه القوافل المتجهة إلى المنيعة، وغرداية، والشرق الجزائري، وكذلك إلى غدامس، و طرابلس، و جنوب تونس، و بالعكس.

و الثّاني وسط شمال يخرج من قصر آولاد عيسى، ويخترق العرق الغربي الكبير حتّى يصل مجرى واد الناموس، وتستعمله قوافل عين الصفراء، ومشرية، وأفلو، وسعيدة، والوسط الجزائري. والطريق الثّالث، وهو الشمال الغربي، وكانت تتبع مجرى وادي الساورة، وتسلكها القوافل المتجهة إلى الغرب الجزائري، وأسواق سجلماسة، وتافيلالت، ومراكش، وفاس بالمغرب .[43]

أمّا الإتجاه الثّاني فكان يربط توات بأسواق السودان الغربي، انطلاقاً من عين صالح إلى أرض قبائل التوارق (تمنراست)، أو من قصر أقبلي، وتسلكه القوافل التّجارية باتجاه مدينة تمبكتو عن طريق المبروك، وأروان، وكانت هذه الطريق أكثر أماناً، وهي الطريق ذاتها التي سلكها الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني في رحلته من توات إلى أروان كما سيأتي.

و لم تقتصر القوافل التّواتية على التّجارة، بل كانت هناك قوافل الحجاج التي يشترّك فيها عدد كبير من التّواتيين وجيرانهم، وكانت قافلة الحجاج التواتية تتجمع بمقاطعة عين صالح، وتسلك الطريق الشمالي الشرقي التي تمر بمدينة غات، وعندما تصل إلى مدينة مرزوق تمكث القافلة لمدة خمسة وعشرين يوماً، يبيع أفرادها ويشترون ما يحتاجون إليه من أسواقها، ثم تستأنف القافلة سيرها نحو فزان، ومنها تتجه إلى مصر لتبحر إلى الأراضي الحجازية.[44] وهي الطريق ذاتها التّي وصفها الشاعر الشعبي ولد سيد الحاج في رحلته الشوقية للحج، والتّي كان الشيّخ سيدي أبي نعامة القبلاوي يقود وفود الحجيج منها، ولذلك سمي بشيخ الركب النبوي.

3– توات في عيون الرحالة : تحدث عن توات كثير من العلماء، والأدباء، والرحالة، والمؤرخين مثل إبن حوقل، والحسن الوزان (الأسد الإفريقي)، والاصطرخي المعروف بالكرخي، واليعقوبي، وابن بطوطة (ت 779 ه)، وابن خلدون (ت808ه)، وأبو سالم العياشي (ت ق 11 ه)، وعبد الرحمن السعدي، والرحالة ابن الدين الأغواطي (ت. ق 13ه)، بالإضافة إلى الرحالة الألماني جيرد هارد ولف (GERHARD Wolff)، والمؤرخان الفرنسيان مارثان (MARTIN)، وبرنارد (BERNARD) [45]...، وسنذكر بعض الرحالة والمؤرخين الذين زاروا توات أو ورد اسمها في كتبهم، وسمّوها باسمها.

– ابن بطوطة : ذكر في رحلته المشهورة توات، وقال: (وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات، ودخلنا بودة؛ و هي أكبر قصور توات، وأرضها رمال، وسبخة، وتمرها كثير، ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها، ولا سمن، ولا زيت، وأن

أكثر أكل أهلها التمر والجراد).[46]

2 – وتحدّث عنها المؤرخ ابن خلدون، فكثيراً ما يذكر اسم توات على أنها المقاطعات الواقعة بمحاذاة وادي مسعود.[47]

3 – أما الحسن الوزان (الأسد الإفريقي)، فقد وصف لنا في كتابه (وصف افريقيا) تسابيت، و تيجورارين (قورارة)، فقال : عن تسابيت (تسابيت إقليم مأهول وراء صحراء نوميديا على بعد مائتين و خمسين ميلا شرق سجلماسة، ومائة ميل من الأطلس يضم أربعة قصور أغلبية سكانها فقراء، لا تنبت أرضهم غير التمر، وقليل من الشعير، بشرتهم سمراء، إلا أن نساءهم جميلات سمراوات)[48], ووصف قورارة بأنّها منطقة نخيل، ثم قال عن أهلها : (ويأكلون لحم الجمال، ويستعملون في طعامهم الشحم.. الذي يأتي به تجار فاس و تلمسان) .[49]

4 – وتحدث عنها أبو سالم العياشي في رحلته المسماة (ماء الموائد) قائلاً: (ودخلنا أول عمالة توات، وهي قرى تسابيت، وزرنا أول قرية منها قبر الولي الصالح سيدي محمد بن الصالح المعروف بعريان الرأس، وأقمنا بها ستة أيام، وبعنا بها خيلنا، وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما نحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر بها رخيصاً).[50]

و تحدث عن زيارته لقصر أولاد راشد، ولقائه بشيخها سيدي عبدالله بوطمطم، و ما رأى فيه من الصلاح والتقوى.

5- الإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي الذي ذكرها في مقولته الشهيرة: (دخلنا أرض توات، فوجدناها أرض علم وبركة، فانتفعوا بنا، و انتفعنا بهم).

6 – كما ذكرها صاحب درة الأقلام الشيخ محمد بن عبد الكريم البكراوي التمنطيطي: (توات هي صحراء في أعلى المغرب ذات نخيل، وأشجار، وعيون، بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما).[51]

7 – ووصفها الرحالة الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي صاحب كتاب (نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات) بما نصه: (توات أرض ذات سباخ، كثيّرة الرمال، والرياح، لا يحيّط بها جبال، ولا أشجار، شديدة الحرارة المفرطة، لا يكاد ينبت فيها إلّا النخيل).[52]

4–الرحلة التواتية اتجاها وغاية

أولاً: الرحلة داخل القطر الجزائري:

وتقسم الرحلة داخل الوطن بدورها إلى قسمين:

أ- **الرحلة داخل الإقليم التواتي:** هناك عدة رحلات قام به التواتيون داخل إقليمهم أهمها :

1 – رحلة سيدي عبد الرحمن بن عمر التنيلاني العلمية داخل إقليم توات : قام الشيخ سيدي عبد الرحمن برحلات داخل الإقليم طلباً للعلم، و زيارة شيوخه، فرحل إلى زاوية كنتة، وتيد كلت، وقرية جنتور بناحية

تجورارين، وعندما رحل إلى زاوية كنتة ذهب لزيارة شيخه سيد عمر بن محمد المصطفى الرقادي الكنتي، فيقول عن أول لقاء جمع بينهما: (لقيته بزاوية عم والدي تينيلان قدمها على شيخنا أبي حفص لخصومة بينه وبين رجل قد كنت رأيته قبل ذلك إلا أني لم أجالسه)[53] ، وكان الشيخ عبد الرحمن مشتاقاً لعلم اللغة، إذ كانت هي المدخل لارتباط التلميذ عبدالرحمن بن عمر بالشيخ سيد عمر الكنتي، خصوصاً عندما قرأ عليه نسخة من مقصورة ابن دريد فيقول : (فأخذها وجعل يقرؤها، وكان فصيحاً ذا رنة حسنة، فازدهاني بفصاحته، و استفزني بحسن صوته)[54] ، فلما رجع إلى بلده حزن الرحالة عليه، و وكاد يتقطع نياط القلب كما قال، ثم أنه تدبر حيلة مع شيخه أبي حفص للاتصال بالشيخ سيد عمر، فاستأذنه في زيارة الشيخ ابن عبد الكريم المغيلى، وهو يريد اللحاق بالشيخ سيد عمر، فلما ورد عليه وجده كما وصفه: (فقدمت عليه ففرح بي فأقمت عنده سبعة أيام فألقيته مع طلبته في غاية الاجتهاد، والتحصيل، والمذاكرة)، [55] وذكر الفنون التي يدرسها، وأوقات تدريسها مع طلبته، وتعلق قلبه بالمدرسة، وشيخها حتى أنه نسي ماله، وأهله، ولولا مخافة موجدة شيخه أبي حفص له لما عاد، ثم أن المحبة والوصال والشوق تمكنمن سويداء قلب التلميذ لدرجة أنه يقول: (فرجعنا وللقلوب التفاتات، وللجسوم انثناء، فلما خرجت، شيعني هو والطلبة، حتى خرجت من البلد، فلما أخذوا يودعونني، اختنقتني العَبرة فلم أملك نفسي حتى سقطت إلى الأرض منتحباً).

فلما رأى مني ذلك أنشد قول الحريري:

خفض فدتك النفس ما تلاقي ... من برحاء الوجد والإشفاق

فلا تن ركائب التـــــلاق ... بحسن الواحـــــد الخلاق

فلما رحلت لبلادنا، وجدت الشيخ يدرس البخاري، وولى قراءته غيري..)[56]. ولما وجد أن الشيخ أبا حفص قد استخلف غيره في قراءة البخاري أحزنه ذلك، وضاقت عليه الأرض، وبقي ينتظر قدوم شيخه سيد أعمر؛ لأنه وعده أن يأتي للشيخ أبي حفص، ويطلب من شيخه المرافقة فيقول: (فكنت أترقبه رقبة أهلة الأعياد، وأستطلعه بالطلائع والرواد..)، ثم وصل الشيخ سيد عمر لتينلان، وأخذ معه سيدي عبد الرحمن، وأسلمه التدريس، ثم عاد لبلاده لسبب مرض ألم به، ثم قدم الشيخ الرقادي ثانية، واستأذن فيه والده وشيخه، فرافقه وأقام هناك معه نحو الشهر، كما رحل سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني إلى قصر جنتور بصحبه شيخه سيدي عبدالرحمن الجنتوري، وأخذ عنه علم اللغة، والفقه، والحساب، وحضر دروسه، وأقام عنده نحو سنة، وأربعة أشهر، ثم رجع لبلاده لمدة خمسة أشهر، ثم رحل له ثانية، وبقي عنده مدة سنة، ثم رجع لبلاده ولازم الشيخ أبا حفص، وكره جنتور، ولم يسعفه هواؤها كما قال : (إنما كرهت الإقامة عنده...، لأني استسمجت بلاده، ولم يوافقني هواؤها، وأكثر إقامتي فيها، وأنا مريض بالحمى، ولم أعرف الحمى قبل رحلتي إليها)،[57] ثم طلب منه الإجازة فأجازه إجازة عامة وخاصة. كما رحل بصحبة

شيخه سيد عمر الرقادي لناحية تيدكلت، وكانت هي الرحلة الأخيرة مع الشيخ سيد عمر. ومنها فارقت بينهما الموت، فيقول : (صحبته لبلاد تيدكلت لملاقاة ركب الحجاج برعاية أمير الحج سيدي محمد بن أبي نعامة لصحبته للحج، فأجابه وحج وقفل معه حتى وصل معه لبلاد فزان،[58] وهناك أتاه أجله رحمه الله، وذلك بقرية زلا ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين ومائة ألف)[59]. ثم أخذ يعدد محاسن شيخه، ومناقبه، وتلامذته.

2 – رحلة ضيف الله بن محمد بن أب لزيارة قبر والده بتيميمون العائلية (ت أواخر القرن الثاني عشر):

هي رحلة قام بها لزيارة قبر والده من بلدته إلى تيميمون وهي رحلة طويلة تقع في 111 ورقة وبمسطرة 30 سطراً، وبكتابة متناهية الدقة والرقة، وجدتها في خزانة تمنطيط[60]، وذكر فيها القصور التي زارها في الأقاليم الثلاثة لتوات، فزار بوعلي، وسالي، وتيمادنين، وزاوية الرقاني... من إقليم توات، ثم زار أقبلي، وتقرافت، وزاوية أبي الانوار، ومطرون، وإن بلبال بإقليم تيدكلت، كما مر على قصور أفران، وأولاد محمود، وأوقروت، و تيميمون... ، من إقليم قورارة، فيكون بذلك كأبيه قد ربط بين الأقاليم الثلاثة لتوات، ويذكر فيها سبب الرحلة قائلا : (قصدت بها بيان نبذة وخبر رحلتي من بلدتي لزيارة [61]وشيخي ووالدي رحمه الله. وجدد عليه رماه)[62]، و يواصل معللا ومؤصلا سبب الزيارة (وزرته عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: { إن من أبر البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي وإن أباه كان صديقا لعمر }). وذكر في رحلته ما رأى من البلدان، والأودية، ومجاري الوديان، ويكثر فيها من الفوائد، والفرائد، وتحدث عن خصومة كانت بينه وبين أبيه، و استعان بالشيخ سيد عمر الكانى، فقام للصلح بينهما، وكاتب أباه الشيخ محمد بن أب المزمري بخصوص كل منصف ، أنه بار وطائع نافع أدام الله لك نفعه، ولنا وله، وتحده في عاقبه، فالله الله، صف خاطرك عليه، واسمح له، واقبل عذره...، ولا تلتفت، ولا تستمع للواشين)[63]، وتصالح مع ابنه، و رضي عنه، ودعا له بالخير. وفي رحلته يكثر من ذكر الفوائد، والفرائد، والاشعار من قوله و من منقوله، و يكثر من ذكر الطعام، والإشادة به، و التفاضل بين القصور في إعداد الطعام، يقول في زيارته الزاوية تقرافت : (ولا بلد بتدكلت يسوي الطعام مثل زاوية تقرافت، فأكلنا الطعام، وخرجت لأتوادع معهم، فأبوا إلا أن أبيت عندهم، وطلبوا مني ما كان الشيخ(أبوه) اعتادهم به من الجلوس)[64]. وفي رحلته بين قصور توات يقول عندما زار قصر بوعلي عند أولاد الشيخ المغيلي: (وبتنا عند أولاد الشيخ بن عبد الكريم ببوعلي، فبعث لنا الشريف مولاي الزين ثريدًا نافلة فأكلناه، —عمره الله آمين — : إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد[65]. ووصف الرحالة الأودية، ومجاريها التي بين أولف، وإن بلبال (.. حتى بلغنا الشمس (غروب الشمس) المنقار الأحمر، وهو مجرى و اد كثير شجر أم ركب، و الحنظل [66] على رؤوس الجبال فنأخذ الحنظلة، فنفقأها فينصب منها الماء الكثير)[67] ويواصل حديثه، وهو متجه نحو الواد الأبيض، (فلما زالت الشمس جمعنا الظهر والعصر، وسرنا يحد السير حتى جئنا الواد الأبيض كثير الطلح أيضاً، وفيه منهل الماء قليل الماء، فاسقينا منه، وسقينا إبلنا وحميرنا، وسرنا

نجد السير حتى أتينا مجرى واد يسمى تباعيت، فبتنا به ليلة نابغية)[68]. أي ليلة بلا عشاء، وبعد زيارة إن بلبال توجه إلى أفران، ومنها إلى أوقروت، ومن ثمة إلى تيميمون حيث مبلغ القصد، ودخلها و التقى بأحباب والده، وسمع منهم ما يسره، وقد حقق المأمول والمبتغى، فقد سأل الحاج أحمد بن يحيى بن موسى عن حاله مع أبيه فأجابه، (إنه مات وهو عنك راض، ولاشى عنده أهم من ذلك، ثم أخبره أنه سأل أباه (قلت له: يا سيدي محمد(ابن أب) هل استفاد منك ابنك ضيف الله، قال انه استفاد، وما في توات خير منه[69]، ثم لما أصبح الصباح ذهب لزيارة ضريح والده (فلما أصبح الصباح سرت للجبانة فزرت ضريح والدي رحمه الله)[70]. وهذه الرحلة جليلة القدر، عظيمة القيمة، فيها من غرائب الأسفار، وأوصاف الأقوام، وطباع الناس، والفوائد الأدبية، والملح، والنكت ما يجعلها جديرة بالنشر، والدراسة من قبل الباحثين، والدارسين لنعرف مستوى أدب الرحلة الذي وصل إليه إقليم توات. ومن بين الفوائد المذكورة في هذه الرحلة إجابة الرحالة عن لغز لأبيه في النحو قال فيه:

صاح سلم على النحاة وسلهم — حبذا حبذا همو إن أجابوا
ما مضاف إليه أعرب بالرفع — صريحاً وذا لعمري عجاب

فأجابه ابنه قائلاً:

من نفسي و عليه من الكريم سلام — مع كثير الامل من مولاه
جواب ما سألت عنه قريب — في حزب الانبياء هداك الله
بعد إلا ولفظه لفظ رفع — ذا الجواب والعجب من مبدأه

3 – رحلة مولاي أحمد بن هاشم العموري العائلية إلى المستور [71]: يبدو لي أن هذه الشخصية من خلال رحلته كان مهتماً بالأنساب، والأعراق، وخصوصا معرفة نسب وأخبار قبيلته الشريفة، فيذكر في بداية رحلته أن سبب رحلته، هو زيارة قصر المستور، المكان الذي يرقد فيه أجداده فيقول:(طلبت من والدي الإذن بزيارة المستور(رقان)، البلد الذي يرقد فيه أجدادي منذ قدومهم إلى توات)[72]. و ذكر تاريخ خروجه من قصر أولاد عمور، وهو الأحد 20 جمادى الأول 1113 هـ (1705م)، وعدد القصور التي زارها، ودخلها، وسجل ما فيها من الأنساب، وما أخذ منها من معلومات، ودائماً يتعلق بالأنساب، وأحياناً بأخبار، أو روايات تاريخية، فزار عددا من القصور منها: تاسفاوت، وعزي، وفنوغيل ومنها إلى قصر الجديد، وعنه يقول: (هناك طلب مني طلبة العلم أن أقرأ لهم كتاب منهاج العابدين)، فأجابهم، وبدأ القراءة الأحد صباحا، وأتم يوم الأربعاء مساء، وبعدها حرروا له عقود المال، واستشارات لحقوقهم، ومن أوراقهم يثبت أنه في سنة 1021هـ – 1611 م قدم الكنتيون إلى تاسفاوت، وأمقيدن، وعزي، وزاوية كنتة)[73].

وزار بلدة لحمر عند مولاي عبدالله بن حسين، وذكر آنه استقبلهم بحرارة، وأظهر لهم شجرته المؤرخة في سنة 931 هـ (1525م) ثم واصل سيره، وزار سيدي بوتدارة، ثم قصر تماسخت، وزعم أن هذا القصر كان لليهود، وذكر أنه مر بالعديد من القرى، والقبائل، ومنها قصر أولاد الحاج (البرجة) بزاوية كنتة، ووصفه بقوله :

(هذا القصر قديم جداً، و يحتوي على العديد من الكتب هنالك، رأيت تاريخ الخلفاء، و تاريخ ابن السبكي، وكذا تاريخ ابن خلدون بالإضافة إلى الجغرافيا، وأيضاً سجلات الفقارات لهؤلاء الناس، ويوجد لديهم مخطوط الشيخ بن عبدالكريم المغيلي مؤرخ س 1040 هـ)[74].

وتحدث أيضاً عن قصر المناصير، وأنه قرأ به فصولاً من صحيح البخاري، وأعجبتهم قراءته، وطلبوا منه البقاء معهم لمدة شهر، ولكنه اعتذر، وأشار في هذا الموضع بأن الشرفاء لم تكن لهم سلطة (2)، بارزة بل كان العرب هم أصحاب الحل والربط.[75]

وفي ذلك لفتة منه إلى مكانة للشرفاء لم يرضها، ثم واصل سيره، حتى بلغ مرغوبه فقال متحدثاً عن المستور، مهوى فؤاده، وموطن أجداده، بعدما زار سيدي عبد الرحمن بأنزجمير (ومنها توجهت إلى سالي، ومن هناك وصلت المستور أرض أجدادي بعد أن أقمت شهراً في قراءة البخاري في أرض أجدادي المستور، توجهت مع آبائي إلى زيارة الرقاني.)[76]

والرحلة خالية من الوصف لمظاهر الطبيعية، واهتم صاحبها بجانب الأنساب، والأعراق، وأعطاه أولوية على غيره، كما أن الرحلة لا تخلو من استطرادات تاريخية مثلما حكى أن اليهود حكموا الواحات الصحراوية، وأنهم أقاموا بتوات دولة عام 260 هـ، وهو عنصر لم يشر له أحد من المؤرخين.[77]

ثانيا: الرحلة خارج إقليم توات: من أهم الرحلات التي يتضمنها هذا القسم :

1 – رحلة الشيخ سيدي عبدالرحمن بن إدريس التنيلاني للجزائر العاصمة الاستكشافية (ت 1233هـ) :

يذكر الرحالة تاريخ بداية سفره لمقصوده في سفريته فيقول : (فلما قدّر الله سفري لمحروسة الثغر الجزائر، وكان سفري لها في أول شهر شعبان المنير أحد شهور سنة إحدى و ثلاثين و مائتين وألف [78]و خرج من تينلان، و وصل تيميمون بعد ثمانية أيام، و اقام بها مدة تسعة أيام، وخرج منها في يوم العاشر متجها نحو مدينة أمزاب، وكان في رفقته شعانبة متليلي فوصفهم قائلاً: (ونعم الرفقة، هم مع مرايتهم، رأيت فيهم من الخدمة، والطاعة، والشفقة مالا أظنه، ولا يخطر ببالي، كأني بينهم مثل الأمير في رعيته)[79]. وأقام بمتليلي مدة من الزمن، ووصف العداوة الموجودة بين الشعانبة وبي مزاب، تم وصل يوم التاسع من رمضان إلى أول قصور امزاب، وهو العطف، ثم زار بقية قصورها، وهي بونورة، وبني يزقن، وأمليكة، وغرداية، ووصفهم بالضلال، وشن عليهم هجوماً شنيعاً،(وقد اجتمعت مع فقهائهم، وتفاوضت معهم، فوجدتهم متمذهبين بالمذاهب الباطلة[80]، ولا يعرفون شيئاً من أصول المذاهب الأربعة)[81]، لأنه يستوطن واد أمزاب شريحة

اجتماعية كبيرة تدعى(الإباضية)، وتحدث عن قرية أبليك، وما فيها من الأمن، والأمان، ووصف غرداية، وواحاتها بقوله: (وكلهم أهل خيل، وشجر، ونخيلهم ما رأيت مثل صلاحه في توات، ولا تافلالت، ولا في ...، إلا أن الماء عندهم لا يجري وحده، بل يجرونه بالبغال، والحمير، والإبل، ويحط فيه من العربان مالا يحد، ولا يوصف، ويجلبون إليها من الصوف، والسمن، والغنم، والزرع ما فوق الكفاية)[82].

وبعدما أقام ببلدة أبليك ثمانية أيام، رحل عنها، وتوجه نحو عرب أولاد نايل، وتحدث عن عاداتهم، وطباعهم، وقال بأنهم أهل خير لدرجة أن طلب الله أن يكثر من عرب المسلمين من أمثالهم فقال: (أكثر الله في عرب المسلمين من أمثالهم، وهم أهل بيت الرحمة، ما رأيت، ولا سمعت من يعظم العلماء، وحملة القرآن مثلهم، ولو قلت أني رأيت فيهم من البر، والرحمة، والرأفة، والحنانة ما لم أراه في والي[83] ما كذبت)، و وصف الأطلس الصحراوي بقوله : (وصلنا جبل الصحاري، وفيه منازل نائل، وهذا الجبل ما رأيت مثل طوله، وكثرة أشجاره، وطولها، وفيه الأنهار المطردة، والطيور المغردة) [84]، ومنها انتقل إلى مدينة تيطري (المدية)، ليصل إلى الجزائر العاصمة فيقول : (ودخلناها وسط ضحى ذلك اليوم، وهو يوم الأربعاء، ونزلت في فندق الجزائر بباب عزون، اكتريت فيه بيتاً، وأقمت فيه ذلك اليوم)، وذكر أنه التقى من علماء الجزائر، ومنهم قاضي المالكية سيد الحسن بن سيد الحاج مصطفى الجزائري، وتعارف معه، وأصبحا متآلفين، وصور إحدى المعارك بين الأسطول الجزائري، والأسطول الإنجليزي على حد تعبيره:

(فلما كان يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر، نزلت سفن عدو الله بدر لنقليز قرب الجزائر في البحر، وهي أربعون سفينة، و كل سفينة فيها مائة مدفع كبير، كل مدفع عمارته قنطار بارود، ونزلوا بعيداً من الجزائر، بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر).[85]

ووصف الرحالة هذه المعركة بإسهاب، وهي بين صاحب الجزائر الباشا عمرو ويدر لنقليز طاغية أنقلطر (انكلترا)، وتحدث عن الدمار الذي حل بالجزائر حتى أصبح ليلها نهاراً، من شدة

النيران المشتعلة، وتحدث عن اعتداء الانقليز على الجامع الكبير، وعلى قبة سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وعلى مسجد الحنفية، و حكى عن الخيانة العظمى التي قام قائد المرسى بالجزائر القائد على، و وصف مصرعه، و نكل الباشا عمر به، وأنه صلبه، و قطع رأسه، ومثل به، وبقي في الجزائر لمدة سبعة وثلاثين يوماً، وخرج منها في اليوم الثامن والثلاثين، وتركها في فوضى بل تعدت لتشمل الشمال الجزائري عامة فيقول : (ولما وقع بالجزائر ما وقع، انقطعت الطريق، وقل الأمان في جميع نواحيها، كل قافلة كانت في طريق من طرق الجزائر، وقع فيها النهب، والقتل حتى مضي لذلك نصف شهر ونحوه من مدينة قسنطينة إلى تلمسان، كلها واقع فيها الخلل في حكمها، وحكامها؛ لأن الناس أيقنوا بخراب الجزائر).[86]

2 – رحلة مولاي أحمد الطاهري الاجتماعية إلى الهقار ومتليلي :

لم يقتصر الرحالة على ذكر توات فقط بل تعدى حدودها، ويذكر لنا أنه رحل الى متليلي بغرداية، والهقار بتمنراست، ويصف لنا طبائع أهلها، وأعيالها، ومن وجده بها، وما رأته عينه من معاملة الناس له، فيقول عن أهل الهقار: (وعندما زرناهم خرجوا لنا جميعاً رجالاً ونساء لملاقاتنا، وعندما نزلت الطائرة التي كنا على متنها، كادوا يحطمون الحواجز التي توجد بالمطار شوقاً لملاقاتنا، ولا تسال عن كرمهم، ولاسيما أعياهم، ولاسيما تلامذتنا، فجزاهم الله أحسن الجزاء).[87]

كما تحدث عن أهل متليلي، وكرمهم، وحبهم لآل البيت واحتفائهم به لمن زارهم، وذكر العائلات الشريفة الموجودة ببلدة متليلي.

3 – رحلة سيدي عبد الكريم بن أمحمد (عالم توات) (ت 1042 هـ) العلمية إلى بني عباس :

تعرف الشيخ سيد عبدالكريم بن أمحمد على آحاد الرجال الصالحين بنواحي قورارة، وهو السيد سيد الحسان بن أحمد بن أبي يحي الشريف، فرغبه للسفر إلى بي عباس، للدراسة على يد الشيخ سيدي سعيد الجزائري فيقول : (عرض علي الرحلة إلى ببني عباس[88] من واد الساورة، للقراءة على السيد سعيد الجزائري، و قال لي: إنه صاحبي، ووعدني بالجد، والاجتهاد في القراءة معي، فإذا رحلت إليه، فإني أنزلك في موضعي، فاستعذرت له بقلة ذات اليد، وعدم النفقة على السفر، فاشترى لي دابة، وأخذ لي زادا، وحملني معه، حتى أوردني على السيد المذكور)[89]، و عندما و وصلا بني عباس، قدما على الشيخ سعيد قدورة الجزائري، وأنزلهما منزلة واحدة ؛ لأن الشيخ سعيد كان يعتقد أن ما فيه من الخير، والفضل ببركة سيدي الحسان رفيق الرحالة. ولما كان عند بني عباس جرى النهر فنظم الرحالة شعراً يقول في باب الجيم:

جرى الماء وابتلت رؤوس الشمارخ[90]	وأطربت الأطيار سبل الشوامخ
و أذهبت اللأواء بعد انبعاثها	كما ذهب المنسوخ بعد النواسخ
و ألبست الرياض شوطاً مرونقا	دلالة في عرضها كالفراسخ

2 – الرحلة باتجاه الدول المجاورة:

1 – رحلة سيدي عبد الكريم بن أمحمد بن أبي محمد (عالم توات) العلمية (ت 1042 هـ) إلى سجلماسة، وفاس، ومراكش:

جال عالم توات، و شيخ مشايخها بسجلماسة، ومراكش، وفاس، طلباً للعلم، وغرفا من بحر العلماء الفحول، الذين أخذ عنهم العلم، وذكرهم في رحلته التي كانت استجابة لبعض الناس الذين لا يرد لهم طلباً، فيقول الرحالة في بداية رحلته: (فقد سألني من أعد أمتثال أمره فرضاً، وإجابة طلبته ربحاً محضاً، أن أبيض له من رحلتي القصيرة، وأذكر له ما سهل من الفوائد الأثيرة) [91].

و قد رتب الشيخ رحلته هذه ترتيباً أبجدياً (أ، ب، ت. . .)، وفي كل باب يذكر أبياتاً من الشعر من قوله، أو منقوله، ثم يذكر شيوخه، أو من أخذ عنهم بعض المسائل العلمية، يقول في باب الظاء (أنشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند موته رضي الله عنه:

ظلوم لنفسي غير أني مسلم * أصلي الصلاة كلها وأصوم

ومن الطلباء النجباء الأذكياء الأدباء سيدي محمد بن عبد الكريم بن سيدي عبد الحكم آخذت عنه مقدمة ابن آجروم بشرحها المكودي، ثم اختطفته المنية رحمه الله في الشباب، وذلك بمدينة فاس).[92]

ومن الشيوخ الذين انتفع بهم، أحد التواتين وجده بمراكش يدعى الحاج أحمد التواتي يقول عنه : (سيدي الحاج أحمد التواتي، وفقه الله لما يواتي، ألفيته – رحمه الله – بحمراء مراكش، فلقيت منه طود مكارم الاخلاق...، طيب النفس والاعراق، سليم الصدر من الأدناس، محافظاً على العمل مع صحة الإحساس، فأخذت عنه معرفة التصريف بآلة الإسطرلاب).[93]

وفي رحلته لا يصف التضاريس، والوديان، والجبال كما فعل الرحالة ضيف الله، ولا يتكلم عن عادات الناس، وطباعهم إلا نادراً، لكنه يذكر أحواله خصوصاً، إن ألم به مرض كالحمى، و لكنّه يذكر أوصاف العلماء الذين يرى فيهم الكفاية العلمية، والقدوة الحسنة، والأعمال الجادة، والخصال الحميدة، يقول عن شيخه سيدي أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي :

(من الأشياخ الذين لهم الحال الباهر الجامعين بين علمى الباطن والظاهر، جامع شتات الفضائل، الحائز القصب السبق بين الأماثل، لسان العصر في البلاغة والبراعة، رافع لواء المجد على البراعة، صاحب الإجابات، المعروف بالبركات، الذي ظهرت عليه مواهب المنة، في إتباع جادة السنة...).[94]

وبالجملة فرحلة عالم توات رحلة فيها المتعة الأدبية، وكثير من الأشعار، والحكم، والفوائد النحوية، واللغوية، والفقهية، وحتى في علم السلوك والتربية.

2 – رحلة [95] عمر بن عبد القادر التنيلاني العلمية إلى سجلماسة [ت 1152 هـ] :

يذكر الشيخ سيد عمر الأكبر بعد الحمدلة، والصلاة، والسلام على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، سبب رحلته إلى سجلماسة، وفاس فيقول : (... لكون البلد شاغرة من العلماء إلى أن شرح الله صدري، وتوجهت همتي للسفر لسجلماسة، أو لمدينة فاس قصداً لذلك، فثنيت عنان عزمني، وصرفت لذلك وجهتي)[96]. ثم أورد أحاديث تدل على فضل العلم وطلبه، ويذكر بعد ذلك سنة سفره إلى مدينة فاس: (فسافرت لطلب العلم من توات لمدينة فاس سنة سبع عشرة ومائة ألف، نحو ثلاث عشرة سنة، وحين وصلت إليها اشتغلت فيها بالقراءة والإقراء)[97]. ثم عدّد المشايخ الذين درس عليهم، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبا عبد الله سيدي محمد السالم بن سيد محمد البرباعي، قرأ عليه القرآن، ومحمد

العربي بن أبي عبد الله محمد بن مقلب الفاسي، قرأ عليه مقدمة ابن آجروم، وسيدي أحمد السقاط، و انتفع بالشيخين: أبي عبد الله سيدي الحسن بن رحال المعداني، والشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد المسناوي الدلالي، وعلّق عليهما بقوله :

(وحصلت على هذين الشيخين من المسائل الفقهية، والفوائد العلمية، والتحقيقات البديعة في الفقه، وغيره ما لم أحصله على غيرهما) [98]. ثم أنه تصدر للتدريس في المدرسة المصباحية، وفي جامع القرويين، وكثر طلبته، وذاع صيته، حتى اتخذوا له كرسياً يجلس عليه، وحكى ذلك في رحلته (ولما كثر علي الطلبة جداً، وعجزت أن أسمع آخرهم، ومن كان في الطرف منهم لكثرتهم، اتخذوا لي كرسياً أجلس عليه لأسمع الجميع، وكان ذلك الكرسي في الموضع المرتفع من جامع القرويين، وراء الحصة الموالية لدرب ابن حيون).[99]

وشرح أسباب التفاف الطلبة حوله، وهي أنه كان يستهل لهم المسائل، ويوضحها ببيان، واجتهاد. ورحلة سيدي عمر بن عبد القادر، هي رحلة علمية بامتياز، ومرتبطة بأدب التراجم، وأدب الإجازات، لأنه ذكر فيها جملة من العلماء الذين أخذ عنهم، وسلسلته في الفقه المالكي، وسلسلته في التصوف المعروفة بسلسلة الأنوار، التي تصل إلى سيدي عبد القادر الجيلاني، وهكذا فعل كثير من الرحالة، والمشايخ مثل رحلة القلصادي (ت 891 هـ)، إلا أن الذي ميز (القلصادي) في الرحلة زيادة على طلب العلم، وذكر مشايخه، هو أن رحلته حجازية، أي ذهب فيها لأداء الحج.[100]

ومما يؤخذ على رحلة سيدي عمر بن عبد القادر، أنه لم يصف لنا الأماكن والجغرافيا وعادات الناس، وطبائعهم، واقتصر على ذكر بعض الأوصاف الخلقية أو الخصال الحميدة لمشايخه.

ثالثا: الرحلة باتجاه الحجاز(الرحلات الحجازية):

الرحلة الحجازية: هي الرحلة الى الحج لأداء الفريضة الخامسة في الاسلام، ولما كان السفر إليها في القديم متعبا، وشاقا، وفيه الكثير من المغامرات، والمخاطر، فقد لجأ الرحالة الى تدوينها، وكتابة فصول المشاهد أثناء الطريق..

وفي تلك البقعة المباركة من المعمورة قد تسبق المشاعر والأشواق الرحلة البدنية للحجاز، فيتخيل الشاعر أنه رحل الى الحج، ويصف لك المشاهد، والمزارات، وهو لم يرحل إليها، وعندنا قصيدتان من ها النوع في الأدب التواتي، الأولى للشاعر ولد سي الحاج القبلاوي، والثانية للشاعر الشعبي عثماني علي.. والرحلة الحجازية من أقدم الرحلات في توات وغيرها، وسنذكر ما تيسر لنا من الرحالين الذين أسهموا في أدب الرحلة الحجازية.

1- رحلة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي للحج (ت 909 هـ):

تعتبر رحلة الشيخ المغيلي للحج من الإرهاصات الأولى لأدب الرحلة في إقليم توات، لما فيها من الطرائف والغرائب، ولما فيها من الحكايات التي تشبه الأساطير عن الشيخ المغيلي من جهة، ولقيمتها الأدبية، والفنية من جهة أخرى، لأنه ارتجل فيها قصيدته الميمية أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذه الرحلة مبسوطة في كتاب (الطرائف والتلائد).[101] لمحمد بن سيد المختار الكنتي، حيث ذكر أن نقطة الانطلاق كانت من التكرور اتجاه مدينة برقة بليبيا بصحبة سيد عمر الشيخ،[102] وهناك وجدا رئيس عرب برقة قد تزوج بربيبته، مخالفا أحكام الشريعة الاسلامية، فنصحه الإمام المغيلي، فلم يقبل النصيحة، وهمّ رئيس العرب بقتل الإمام، لكن الإمام بقدرة الله أشار عليه فقتله، هكذا مذكورة في الرحلة[103]– والله أعلم–، وفي طريقهما مرا على أسيوط، والتقيا بالشيخ جلال الدين السيوطي، وتناظر مع المغيلي في المنطق، والحديث، وأعترف كل واحد منهما يفضل الآخر، ثم واصلا طريقهما للبقاع المقدسة، فحجا ثم اتجها إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول الكريم، وفي هذه الرحلة الحجازية، وأمام قبر المصطفى، وأمام الوكلاء الذين يبعدون كل من يطيل الوقوف أمام ذلكم الروضة الشريفة، جاشت شاعرية المغيلي، وتحركت عواطفه، وجادت قريحته بميمية مرتجلة مخلدة يقول فيها :

بشراك يا قلبي هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم
وهذه الروضة الغراء ظاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم
و منبر المصطفى الهادي و حجرته وصحبه و بقيع دائر بهم
فطلب وغب عن هموم كنت تحملها وسل تنل كل ما ترجوه من كرم
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي فالعبد ضيف وضيف الله لم يضم
يا سيدي يا حبيب الله خذ بيدي فبحر جودك مورد لكل ظم
يا سيد الرسل يا من ضيف ساحته يبيت في أمن في خير وفي نعم

إلى أن يقول رحمه الله تعالى:

ثم الصلاة وتسليم الإله على هذا النبي رفيع القدر والشيم
محمد المصطفى والآل ثم على أصحابه ما سار ركب لربعهم

2 – رحلة[104] سيدي عبد الرحمن بن عمر إلى الحج (ت 1189 هـ) :

الرحلة وجدتها مخطوطة في أوراق متهالكة بخزانة بن الوليد بقصر با عبد الله (أدرار)، لصاحبها بن الوليد الحاج عبد القادر، وهذه الرحلة تعتبر نقلة نوعية في أدب الرحلة بإقليم توات لأنها تخلّصت من أدب التراجم والإجازات، واتضحت فيها معالم الرحلة جلياً، واكتسبت بعداً آخر، وهو أن صاحبها مات، وهو يؤلفها، فلم يكملها، فيعتبر بذلك شهيد الحج، وشهيد أدب الرحلة بإقليم توات.

يبتدئ الرحالة رحلته بمقدمة مسجّعة، فيقول : (الحمد لله الذي فرض على المكلفين من عباده حج بيته العتيق، و غفر ذنوب من حجه، وهو بذلك حقيق، أحمده على ما هدانا إلى خير طريق، وأشكره على ما منحنا من التوفيق).

ثم شرع يذكر أسباب الرحلة، وكيف تيسّر له ترتيب أمورها فيقول : (وبعد، فلما منّ الله علي بالتوجه لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، وذلك لما حركت همة الإخوان في الله سيدي عومر بن سيدي عبد الرحمن، وابن عمه سيدي إدريس ابن شيخنا العلامة سيدي عومر فاستشاراني في ذلك، فأشرت عليهما في الجد في ذلك).[105]

وبعد إجراءات التحضير، والاستخبارات المتكررة، عزم على السفر، وذكر تاريخ خروجه من قرية تنيلان، وهو يوم الجمعة العاشر من جمادى الأخير سنة 1188 هـ، فمر على بلدة تمنطيط، ثم زيارة قبر الولي الصالح الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وهو اعتقاد سائد عند الناس بتوات، بحيث أنهم يبدأون رحلتهم بزيارة ضريح الإمام المغيلي. ومن بوعلي إلى تيدكلت، وتكلم عن السنة الحميدة التي أحياها الشيخ أبو نعامة، وهي الحج في قوافل من توات والتكرور، فقال : (ثم رحلنا لزاوية أي نعامة نفعنا الله به، وزرناه، وهو الذي أحيا سنة الحج من بلاد توات، والتكرور، فأقمنا أربعة أيام، واستأجرنا هنالك دليلاً من الطوارق، واسمه (تكمن)، ثم قمنا منها متوجهين لعين صالح)[106] وبعد ذلك يصف رحلته، ويذكر كل واد، أو سهل، أو غابة، أو سكان، ويصف ما يراه لكنه لا يكثر، ويركز على الماء فيصفه بالحلاوة، او الملوحة، أو القبح، وما بين عين صالح، وفزان كثير من الأماكن، والأودية، أتى على ذكرها، وأحياناً لا يذكر اسم الواد، أو المكان، وغالبا ما يذكر من مات من الركب دون تفصيل، وفي فزان انتظر وصول ركب أبي نعامة، و لما التحق بهم، واصلوا المسير فيقول :

(ونزلنا محل نزول الركب ظهراً، وذلك يوم السبت السادس عشر من شعبان والتاسع عشر من أكتوبر، فلم يقدموا فارتحلنا، ونزلنا على أجصص قرية من عين المولى، ثم ارتحلنا منها، ونزلنا بقرية أنزغر، قرب الزوال، وأقمنا فيها الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وفيها ورد علينا ركب سيدي محمد بن الشيخ أي نعامة الذي كنا ننتظره، وتلك القرية هي أكثر قرى فزان تمراً وأجوده، وفيها عيون تجري خلاف غيرها).[107]

وصور لنا الرحالة ما رأى، وما لاقى من المصاعب، والمتاعب في هذه الرحلة فيقول : (فاستقبلنا جبلاً وعراً، فتركناه ذات اليمين، وسايرناه مستقبلين القطب الشمالي إلى الظهر، فوجدنا فيه طريقاً بين جبلين مستقبلة جماعتنا، فسلكناها بمشقة فادحة، حتى أن البعير ليضع خفه إلا بين حجرين، فلم نخرج منه إلى قرب المغرب). [108]

ويصف لنا الواقعة، أو الحادثة التي ألمت به، وهو سقوطه من فوق الدابة فيقول:

(يوم الرابع من شعبان آخر شتنبر، وقع في ذلك من القدر، فسقطت من الراحلة، وأنا ناعس على جنبي الأيمن على أرض صلبة، ولولا لطف الله لي لانكسر عظم من عظامي، ولكن الله سلم فقمت، وركبت راحلي، ولما نزلت لصلاة الظهرين ثقلت علي عظمي، ولما وصلنا مكان المبيت تعذر علي المشي).[109]

ثم يصف لنا في هذه الرحلة ما رآه في المجتمع المصري، وما تعرض له الركب من محاولات السطو من قبل الأعراب، وقطاع الطرق، وذكر القاهرة، وواد النيل، والعقبة، وأنه زار قبر الإمام الشافعي، والسيدة نفيسة، كما زار الأزهر الشريف...

ثم وصل إلى مبتغاه، ووصل مكة، وحج، وطاف بالبيت العتيق، (ثم رحلنا منه سحراً، ووصلنا مكة، واغتسلنا، وأردنا الدخول من كداء اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، فمنعنا شيء وقع من الأعراب فيه، فأخذنا ذات اليمين، ونزلنا بكدى المسمى باب الشبيكة، ودخلنا منه يوم الأربعاء السابع من الشهر، ثم دخلنا المسجد الحرام من الباب المقابل للمقام الملكي)[110]. وبعدها أتم المناسك، ثم زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقفل راجعاً، و في أثناء عودته وبأرض مصر وفاه الأجل المحتوم، فبكته السماء، والأرض، والشعراء، والأدباء، والعلماء.

خاتمة:

تنوعت رحلات التواتيين، واختلفت أسباب ترحالاتهم، ولأن أغلبهم كانوا من العلماء والمشايخ فإن الرحلات العلمية تحتل الصدارة؛ حيث احتوت تلك الرحلات على تراجم وسير وإجازات ومعلومات فقهية وعلمية، واتجهت بعض الرحلات داخل الإقليم، وبعضها خارجه، لكنها داخل القطر الجزائري، أما الاتجاه الخارجي فكان أغلبه نحو البقاع المقدسة.

لم تحمل الرحلة في منطقة توات مفاجآت كبيرة، ولا حتى قيما فنية كبيرة، وذلك لأن أغلب من كتبها علماء محافظون ومقلدون، كما أنهم في الغالب لم يخرجوا عن مجالات العلم ومحاضنه، باستثناء رحلة عبدالرحمن بن إدريس التنيلاني إلى الجزائر العاصمة التي تضمنت معلومات تاريخية واجتماعية وحربية، وكان فيها شاهدا على معركة احتلال الجزائر.

يسجل الباحث في رحلات التواتيين تميز الرحالة عبدالرحمن بن عمر التنيلاني الذي تعددت رحلاته، وتنوعت اتجاهاته، حيث دون رحلته الداخلية في الإقليم التواتي، ورحلاته خارج الوطن لكل من المغرب ومالي، ثم رحلته الحجازية والتي مات فيها ودفن في مقبرة المنوفي بمصر، واستطاع أن يدون مغامراته في البلدان وطرق الصحراء، ومشاهداته اليومية في القافلة، ولولا الموت الذي عاجله لكان لرحلته أثرا أكبر.

ومع ذلك أحدث نقلة نوعية في أدب الرحلة بتخليصها من الارتباط بالإجازات والمعارف الفقهية وحاول

حسب سياقه التركيز على اليومي ومعايشة الأحداث بما في ذلك حوادث الموت والقرصنة والمخاطر، حتى أنه مات وهو يؤلفها أثناء عودته من الحج.

الحواشي

1 – سورة قريش، الآية رقم 02.

2 – ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، 1989 ص 335-333.

3 – عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب. 1999 ،ص 72

4 – محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413، 1993، ص 113 .

5 – د. حسن بن فهد الهويمل، أدب الرحلة عند العبودي، مقالة منشورة جريدة –الجزيرة – السعودية، العدد 11450 بتاريخ 12 ذو الحجة 1424 الموافق لـ 03 فبراير2004م

6 – حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، 1991 ، ص98.

7 – حسين نصار، المرجع نفسه، ص 101 – 102

8 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ط 1، سنة 1998م)، ص 390.

9 – حسين نصار، المرجع المذكور سابقاً، ص 102.

10 – المرجع نفسه، ص 21

11 – حسين نصار، المرجع المذكور سابقاً، ص 106 – 110

12–محمد بن عبد الله المشهور بابن بطوطة، ولد في طنجة، استغرقت رحلاته مدة 39 عاماً، من 1304 إلى 1377 م).

13 – جورج غريب ، أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 3، 1989 م، ص 58.

14 – حسين نصار، المرجع المذكور سابقاً، ص 45.

15 – المرجع نفسه، ص 48.

16 – داني الفييري : 1265 – 1321، شاعر إيطالي تأثر برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وهو من أعظم رجالات الأدب في أوربا.

17 – سورة قريش، الآية 02.

18 – الاثنوجرافي : كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال زمن معين.

19–عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، د.م.ج، الجزائر، س، 1995، ص 11.

20 – عمر بن قينة، اتجاه الرحالين الجزائريين، ص 12.

21 – الحسن محمد الوزان : المعروف بالأسد الإفريقي – 888 هـ 957 هـ، 1483 م – 1550 م، تعرض لمحنة التنصير الإجباري ثم عاد إلى دينه ودين آبائه الإسلام.

22 – محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، الشركة التونسية للتوزيع تح علي الشنوفي، تونس، سى 1978 م – 1398 هـ ، ص 13 .

23 – عمر بن قينة، المرجع نفسه، الصفحات 25، 47، 130

24 – المرجع نفسه، الصفحات 140، 287.

25 – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع المذكور سابقاً، ص 381.

26 – المصدر نفسه، ص 382

27 – المصدر نفسه، ص 383.

28 – المصدر نفسه، ص 385.

29 – ابو القاسم سعد الله، المرجع المذكور سابقاً، ص 386.

30 – الرحالة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني :[1125 – 1193 هـ].

31 – المصدر نفسه، ص 398

32 – عمر بن قينة، المرجع المذكور سابقاً، ص. 19.

– ينظر: المرجع السابق, ص 25 وما بعدها.33

34 – أحمد الصديق، المرجع المذكور سابقاً، ص 35

35–فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الخزائر، 1977. ص03

36 – الهيدروغرافيا : علم دراسة مجاري المياه.

37 – حاج أحمد الصديق، المرجع المذكور سابقاً، ص 36.

38 – فرج حمود فرج، المرجع المذكور سابقا، ص 2.

39 – عليق ريحة، قصر ملوكة بأدرار، دراسة تاريخية آثرية، ماجستير من قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، غير منشورة، س 2001 – 2002, ص11.

40 – معروفة محلياً بأريفي.

41 – حاج أحمد الصديق، المرجع المذكور سابقاً، ص 37.

42 – عليق ريحة، المرجع نفسه، ص 13.

43 – فرج محمود فرج، مرجع سبق ذكره، ص78.

44 – المرجع نفسه، ص 81.

45 – أحمد جعفري، المرجع المذكور سابقاً، ص 29

46 – ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، دار بيروت للطباعة والنشر 1980، ص 699 –700.

47 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 1، ص 123 و 198.

48 – الحسن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي, لبنان، 1983، ص 133–134.

49 – المرجع نفسه، ص 134.

50–أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، ج 1 تحقيق محمد حجي, 1977م, طبعة حجرية، المغرب، ص 20.

51 – محمد بن عبد الكرم البكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة تمنطيط، الورقة1.

52 – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط موجود بخزانة كوسام، الورقة1.

53 – سيدي عبد الرحمن بن عمر التينلاني، الفهرسة، مخطوط خزانة، تمنطيط، ص 34 و 35.

54 – المصدر نفسه، ص 35.

55 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

56 – المصدر نفسه، الصفحة 35.

57 – المصدر نفسه، ص 08.

58 – قرية بلبيبا وهي نقطة رئيسية في مسار الرحلات إلى الحج

59 – المصدر نفسه، ص 37.

60 تم تحقيق الرحلة على يد الأستاذ الدكتور أحمد جعفري في مجلدين

61 – بياض في أصل المخطوط.

62 – رحلة ضيف الله، مخطوط، خزانة تمنطيط، الورقة 01

63 – المصدر نفسه، ص 07

64 – الرحلة، ضيف الله، ص 41

65 – المصدر نفسه، ص 39.

66 – بياض في أصل المخطوط.

67 – ضيف الله، المصدر نفسه، ص 45

68 – ليلة نابغية يعني بلا عشاء، فقد عثر البعير الذي كان يحمل القدور فانكسرت فاسترجع الرحالة ضيف الله أي قال (إنا لله وإنا إليه راجعون)

69 – المصدر نفسه، ص 64.

70 – المصدر نفسه، ص 64.

71 – المستور قرية من قرى بلدية سالي دائرة رقان.

72 – رحلة مولاي أحمد بن هاشم، خزانة سليماني علي، ص 01

73 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

74 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها

75 – المصدر المذكور سابقاً، ص 02

76 – المصدر نفسه، ص 03.

77 – عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، المغربى ، ط01 ،س 2001) ص 20.

78 – رحلة سيدي عبد الرحمن بن إدريس للجزائر، مخطوط موجود بكل من خزانة كوسام وهو المعتمد عليه، وخزانة بن الوليد، وخزانة تمنطيط، ص 01

79 – المصدر نفسه.

80 – المذهب الاباضي : احدي الفرق الاسلامية التي لا تعد من أهل السنة والجماعة لذلك سماها بالباطلة.

81 – المصدر نفسه، ص 02.

82 – المصدر نفسه، ص 03.

83 – هكذا في الأصل، لأن الصواب أن يكتب وال.

84 – المصدر نفسه، ص 03.

85 – المصدر نفسه، ص 05.

86 – المصدر نفسه، ص 10 و 11.

87 – نسيم النفحات، ص 52.

88 – دائرة من دوائر ولاية بشار.

89 – رحلة سيدي عبد الكريم بن محمد، مخطوط، خزانة تمنطيط بيد الشيخ عبد الحميدالبكري، ص 19.

90 – الفروع التي تحمل التمر في العرجون.

91 – رحلة الشيخ سيدي عبد الكريم بن أمحمد، مخطوط، خزانة تمنطيط، ص 01.

92 – المصدر نفسه، ص 10.

93 – المصدر نفسه، ص 05.

94 – المصدر نفسه، ص 27.

95 – الرحلة نشر مقتطفات منها الشيخ باي في كتابه الغصن الداني من غير تحقيق، ص .08

96 – رحلة عمر بن عبد القادر الجزائري، مخطوط، خزانة الشيخ باي، أولف، ص 01.

97 – المصدر نفسه، ص 01.

98 – المصدر نفسه، ص 04.

99 – المصدر نفسه، ص 21.

100 – رحلة القلصادي، تح محمد أبو الأحقاف، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ط 2) صود 70

101 – مخطوط، موجود بخزانة كوسام، وتوجد عند الشيخ أمحمد الكنتي بزاوية كنته نسخة منه .

102 – أحد أعلام قبيلة كنته، تلميذ الإمام المغيلي، فقيه، ورحالة، ولد بالمغرب الأقصى.

103 – الطرائف والتلائد، مخطوط، ص126.

104 – الرحلة نشرها الشيخ محمد باي بلعالم في كتابه (الغصن الداي في ترجمة وحياة الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التينلاني) الصفحات 60، 61.... 71.

105 – سيدي عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، مخطوط، خزانة بن الوليد الوليد، باعبد الله، أدرار، ص 01

106 – سيدي عبد الرحمن بن عمر، المصدر المذكور سابقا، ص 03.

107 – المصدر نفسه، ص 11.

108 – المصدر نفسه، ص 06

109 – سيدي عبد الرحمن بن عمر، المصدر المذكور سابقاً، ص 09.

110 – محمد باي يلعالم، الغصن الدالي، ص 70

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

1– الكتب المطبوعة:

110 – عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب. 1999

2–محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413، 1993.

3– حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط1، 1991م.

4– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ط 1، سنة 1998م)

5– جورج غريب ، أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 3، 1989 م.

6– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ط 1، سنة 1998م).

7– عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، د.م.ج، الجزائر، ط 1، سنة 1995.

8–محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، الشركة التونسية للتوزيع تح علي الشنوفي، تونس، سنة 1978 م – 1398 هـ .

9– فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، 1977.

11 – حاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات، مديرية الثقافة لولاية أدرار
12 – ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، دار بيروت للطباعة والنشر 1980،
13– الحسن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983.
14–أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، ج 1 تحقيق محمد حجي, 1977م, طبعة حجرية، المغرب.
15– رحلة القلصادي، تح محمد أبو الأحقاف، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ط 2)
16– عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، المغربى ، ط01 ،س 2001)
17– الغصن الداني في ترجمة وحياة عبدالرحمن بن عمر التنيلاني، الشيخ باي بلعالم، دار هومة، الجزائر
18– ابن بطوطة، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، دار بيروت للطباعة والنشر 1980.
19– ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1.

2– المقالات:

110 – د. حسن بن فهد الهويمل، أدب الرحلة عند العبودي، مقالة منشورة جريدة –الجزيرة – السعودية، العدد 11450 بتاريخ 12 ذو الحجة 1424 الموافق لـ 03 فبراير2004م

3– الدراسات:

1– عليق ريحة، قصر ملوكة بأدرار، دراسة تاريخية آثرية، ماجستير من قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، غير منشورة، س 2001 – 2002.

4– الكتب المخطوطة:

1– سيدي عبد الرحمن بن عمر التينلاني، الفهرسة، مخطوط خزانة، تمنطيط.
2 – رحلة سيدي عبد الرحمن بن إدريس للجزائر، مخطوط موجود بكل من خزانة كوسام وهو المعتمد عليه، وخزانة بن الوليد، وخزانة تمنطيط.
3 – رحلة سيدي عبد الكريم بن محمد، مخطوط، خزانة تمنطيط بيد الشيخ عبد الحميد البكري.
4 – محمد بن عبد الكرم البكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة تمنطيط، الورقة1.
5 – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، مخطوط موجود بخزانة كوسام.
6 – رحلة الشيخ سيدي عبد الكريم بن أمحمد، مخطوط، خزانة تمنطيط.
7– رحلة عمر بن عبد القادر إلى سجلماسة، خزانة الشيخ باي، أولف.
8– الطرائف والتلائد، مخطوط، حزانة كوسام .
9 – سيدي عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، مخطوط، خزانة بن الوليد الوليد، باعبد الله.